أمره عليه السلام سرية بالخروج في الليل

وأخرج البيهقيّ (٩/ ١٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: **أمر رسولُ الله ﷺ بسريةٍ تخرج. فقالوا: يا رسول الله، أنخرج الليلة أم نمكثُ حتى نُصْبِحَ؟ فقال: «أوَلا تُحِبُّونَ أنْ تَبِيتُوا في خَرِيفٍ من خَرائِفِ الجَنَّةِ؟»** ـ والخريف: الحديقة ـ وأخرجه الطبراني أيضاً عن أبي هريرة ـ بنحوه: قال الهيثميّ (٥/ ٢٧٦): وشيخه بكر بن سهل الدمياطي؛ قال الذهبي: مقارب الحديث؛ وقال النسائيّ: ضعيف، وفيه ابن لهيعة أيضاً؛ انتهى.

إنكار عمر على معاذ بن جبل تأخيره الخروج

أخرج ابن راهَوَيْه، والبيهقي عن أبي زُرعة بن عمر بن جرير قال: **بعث عمر بن الخطاب جيشاً وفيهم مُعاذ بن جبل رضي الله عنهما، فلما ساروا رأى معاذاً فقال: ما حَبَسَكَ؟ قال: أردتُ أنْ أصلِّي الجمعة ثم أخرج. فقال عمر: أما سمعتَ رسول الله ﷺ يقول: «الغَدْوَةُ والرَّوْحَةُ في سبيل الله خيرٌ مِنَ الدُّنيا وما فيها؟!»**[1] كذا في كنز العمال (٢/ ٢٨٩).

العتاب على من تخلَّف عن سبيل الله وقصَّر فيه
قصة كعب بن مالك الأنصاري

أخرج البخاري عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: **لم أتخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنتُ تخلَّفتُ في غزوة بدر ولم يعاتب أحداً تخلَّف عنها، إنما خرجَ رسول الله ﷺ يريد عِيرَ قريش حتى جمع اللهُ بينهم وبين عدوِّهم على غير ميعاد. ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبَّ أنَّ لي بها مشهدَ بدر، وإنْ كانت بدر أذْكَرَ في الناس منها. وكان من خبري: أني لم أكن قطّ أقوى ولا أيسر حين تخلَّفتُ عنه في تلك الغزوة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتانِ قطّ حتى جمعتهما في تلك الغزوة ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا وَرَّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديدٍ، واستقبل سفراً بعيداً، ومفازاً وعدواً[2] كثيراً. فجلَّى[3] للمسلمين أمرَهُمْ ليتأهَّبُوا[4] أُهْبَةَ[5] غَزْوِهِمْ، فأخبرهم**

(١) أي خير من الدنيا وما فيها من الأعمال الصالحة.
(٢) من «البخاري»، وفي «البداية»: عدداً وعداداً.
(٣) جلّى: كشف وأظهر.
(٤) ليتأهبوا: لينهضوا.
(٥) الأهبة: العدة وما يحتاج إليه في السفر والحرب.

بوجهه الذي يريد. والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ ـ يريد الديوان ـ. قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظنّ أن سيخفى[1] له ما لم ينزل فيه وحي الله.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهّز رسول الله ﷺ والمسلمون معه. فطفقتُ أغدو لكي أتجهّز معهم فأرجع ولم أقضِ شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادرٌ عليه، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتدَّ بالناس الجدّ. فأصبحَ رسول الله والمسلمون معه، ولم أقضِ من جهازي[2] شيئاً فقلت: أتجهّز بعد يوم أو يومين، ثم ألحقهم؛ فغدوتُ بعد أن فَصَلُوا لأتجهّز. فرجعتُ ولم أقض شيئاً، ثم غدوتُ ثم رجعتُ ولم أقضِ شيئاً فلم يَزَلْ بي حتى أسرعوا وتفارط[3] الغزو، وهممتُ أن أرتحلَ فأدركهم ـ وليتني فعلتُ ـ فلم يُقدَّر لي ذلك. فكنتُ إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً[4] عليه النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك. فقال ـ وهو جالس في القوم بتبوك ـ: «ما فَعَلَ كَعْبٌ؟» فقال رجل من بني سلِمة: يا رسول الله، حبسه بُردا، ونَظَرُه في عِطْفيه، فقال معاذ ابن جبل: بئسَ ما قلت، والله يا رسول الله ما عَلِمْنا عليه إلا خيراً، فسكتَ رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجَّه قافلاً[5] حضرني همّي وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّر الكذِب وأقول: بماذا أخرج من سخطه غداً؟ واستعنت على ذلك بكلّ ذي رأي من أهلي. فلما قِيلَ: إنَّ رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عني الباطل، وعرفت أنّي لَنْ أخْرُجَ منه أبداً بشيءٍ فيه كذب فأجمعتُ صِدْقَهُ، وأصبح رسول الله ﷺ قادماً، فكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلَّفون فطَفِقُوا يعتذرون إليه ويحلفون له ـ وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ـ فَقَبِلَ منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكلَ سرائرهم إلى الله عزَّ وَجَلَّ. فجئته، فلما سَلَّمْتُ عليه تَبَسَّم تَبَسُّم المُغْضَب، ثم قال: «تعالَ». فجئت أمشي حتى جلستُ بين يديه. فقال لي: «ما خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟» فقلت: بلى، إني ـ والله ـ لو جلست عند غيرك من

(١) من «البخاري»، وفي «البداية» «يستخفي».
(٢) الجهاز: ما يحتاج إليه الغازي في غزوه والمسافر في سفره.
(٣) تفارط أي فات وقته.
(٤) مغموصاً عليه النفاق: أي مطعوناً في دينه، متهماً بالنفاق.
(٥) قافلاً: راجعاً.

أهل الدنيا لرأيتُ أن سأخرُجُ من سخطه بعذرٍ، ولقد أُعطِيتُ جَدَلاً[١]، ولكني ـ واللهِ ـ لقد علمتُ لئن حدّثتُك اليوم حديث كذبٍ ترضى به عني، ليوشِكَنَّ الله أن يُسخِطَكَ عَليَّ، ولئن حَدّثتُكَ حديثَ صِدْقٍ تجدُ[٢] عليَّ فيه، إني لأرجو فيه عفوَ الله، لا، واللّهِ، ما كان لي من عذر، ووالله، ما كنت قطُّ أقوى ولا أيسَرَ مني حين تخلّفتُ عنك. فقال رسول الله ﷺ: «أمّا هٰذا فَقَدْ صدق، فَقُمْ حَتّى يَقْضِيَ اللّهُ فِيكَ». فقمت. فثار رجالٌ من بني سَلِمة فاتّبعوني فقالوا لي: والله، ما علمناكَ كنتَ أذنبتَ ذنباً قبل هذا؟ ولقد عجزتَ أن لا تكون اعتذرتَ إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلّفون، وقد كان كافيكَ ذنبَكَ استغفارُ رسول الله ﷺ لك. فوالله، ما زالوا يؤنبونني[٣] حتى هممتُ أن أرجع فأُكَذّب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحداً؟ قالوا نعم، رجلان. قالا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك. فقلت: من هما؟ قالوا: مُرارة بن الربيع العَمْري، وهِلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أُسوة، فمضيتُ حين ذكروهما لي. ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيُّها الثلاثةَ من بين من تخلّف، فاجتَنَبَنا الناس وتغيّروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرضُ، فما هي التي أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا[٤] وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنتُ أشبَّ القوم وأجلَدَهُمْ؛ فكنتُ أخرج فأشهدُ الصّلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد. وآتي رسول الله ﷺ فأسلّمُ عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، وأقول في نفسي: هل حَرّكَ شفتيه بردِّ السلام عليَّ أم لا؟ ثم أصلّي قريباً منه فأسارقه النظر[٥]، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني. حتى إذا طال عليَّ ذلك من جَفْوة الناس[٦] مشيت حتى تَسَوّرْتُ[٧] جدار حائط أبي قتادة ـ وهو ابن عمّي وأحبُّ الناس إليّ ـ فَسَلَّمْتُ عليه، فواللّهِ، ما رَدَّ عليَّ السّلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله، هل تعلمني أحبُّ الله ورسوله؟ فسكتَ. فعدتُ له فنشدته، فسكتَ. فعدتُ له فنشدته. فقال: اللّهُ ورسولُه أعلم، ففاضت عيناي وتولّيتُ[٨] حتى تَسَوّرْتُ الجدارَ.

---

(١) جدلاً: أي فصاحة وقوّة كلام.
(٢) تجد: تغضب عليّ.
(٣) يؤنبونني: يلومونني أشدّ اللوم.
(٤) استكانا: خضعا وذلا.
(٥) أسارقه النظر: أي أنظر إليه اختلاساً بحيث لا يشعر.
(٦) جفوة الناس: إعراضهم.
(٧) تسوّرت: صعدت عليه.
(٨) تولّيت: أدبرت.

قال: وبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نَبَطيٌ من أنباط أهل الشام ممّن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول: مَنْ يَدُلُّني على كعب بن مالك فطفِقَ الناس يشيرون له حتى إذا جاءني، دفع إليّ كتاباً من ملك غسان فإذا فيه:

«أما بعدُ: فإنه قد بلغني أنّ صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحقْ بنا نُوَاسِكَ»[1].

فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء، فتيممت[2] بها التنور فسجرته[3] بها.

(فأقمنا على ذلك)، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إنّ رسول الله ﷺ يأمرك أنْ تعتزِلَ امرأتك. فقلت: أُطَلِّقُها أم ماذا أفعل؟ قال: «لا، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك. فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضيَ الله في هذا الأمر. قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية إلى رسول الله فقالت: يا رسولَ الله، إنّ هلال بن أمية شيخ ضائع، ليس له خادم، فهلْ تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يَقْرَبْكِ». قالت: إنه ـ والله ـ ما به حركة إلى شيء، والله، ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنتَ رسول الله ﷺ في امرأتك كما استأذن هلالُ بن أُمية أن تخدمه. فقلت: والله، لا أستأذِنُ فيها رسول الله ﷺ، وما يُدريني ما يقولُ رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجلٌ شابٌ؟!.

قال: فلبثتُ بعد ذلك عشر ليال حتى كملتْ لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا. فلما صلّيتُ الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله عز وجل قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رَحُبَتْ[4] ـ سمعتُ صوتَ صارخٍ أوفى[5] على جبل سَلْع يقولُ بأعلى صوته: يا كَعْبُ، أَبْشِرْ، فخررت[6] ساجداً، وعرفتُ أن قد جاء فَرَجٌ. وآذن[7] رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله علينا حين صلّى صلاة الفجر. فذهب الناس يبشّروننا، وذهب قِبَلَ صاحبيّ مبشرون، وركضَ رجل إليّ فرساً، وسعى ساعٍ من أسلَم فأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من

(١) في الأصل «نواسيك» والصواب ما ذكرنا.
(٢) تيممت: قصدت.
(٣) سجرته: أي أدخلتها في التنور.
(٤) رحبت: وسعت.
(٥) أوفى: أشرف وطلع.
(٦) فخررت: سقطت.
(٧) آذان: أعلم.

الفرس. فلما جاءني الذي سمعتُ صوته يبشرني نزعتُ له ثوبيّ فكسوته إياهما ببشراه، ووالله، ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرتُ ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنئونني بالتوبة يقولون: لِتهنِكَ توبةُ اللّهِ عليك. قال كعب: حتى دخلتُ المسجد، فإذا برسول الله ﷺ جالسٌ، حوله الناس؛ فقام إليّ طلحةُ بن عبيد الله رضي الله عنهُ يُهَرْوِلُ[1] حتى صافحني وهنّأني، والله ما قام إليّ رجلٌ من المهاجرين غيرُه، ولا أنساها لطلحة[2]. قال كعب: فلما سلّمت على رسول الله ﷺ، قال رسولُ الله ﷺ، ـ وهو يبرق وجهه من السرور ـ «أبشِرْ بِخيرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ» قال قلت: أمِنْ عندِك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللّهِ». وكان رسول الله ﷺ إذا سُرّ استنار[3] وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إنّ من توبتي أنْ أنخلعَ من مالي صَدَقَةً إلى الله وإلى رسوله. قال رسول الله ﷺ: «أمْسِكْ عَلَيكَ بَعْضَ مالكَ فَهُوَ خَيرٌ لَكَ» قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، وقلتُ: يا رسول الله إنّ الله إنما نجّاني بالصدق، وإنّ من توبتي، ألا أُحدّث إلا صدقاً ما بقيت، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني ما تعمدت[4] منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت. وأنزل الله على رسوله ﷺ ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ والمهاجِرِينَ والأنصَارِ ـ إلى قوله ـ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[5] فوالله، ما أنعم الله عليّ من نعمة قطّ بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسولَ الله ﷺ أنْ لا أكون كذبته فأهلك كما هلَك الذي كذبوا، فإنّ الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد قال الله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إذا انْقَلَبْتُمْ إلَيهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ـ إلى قوله ـ فإنّ اللّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ القَوْمِ الفَاسِقِينَ﴾[6].

قال كعب: وكنا خُلّفنا[7] ـ أيها الثلاثة ـ عن أمر أولئك الذين قَبِلَ منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ[8] رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه. فبذلك قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الذين خُلّفُوا﴾[9]، ليس الذي ذكر الله مما خُلّفنا من

(١) يهرول: يسرع بين المشي والعدو.
(٢) كان النبي ﷺ قد آخى بينه وبين كعب.
(٣) استنار: أضاء.
(٤) من «البخاري»، وفي الأصل: ما شهدت.
(٥) [٩/ سورة التوبة/ ١١٧].
(٦) [٩/ سورة التوبة/ ٩٥ ـ ٩٦].
(٧) في الأصل: «تخلّفنا». والصواب ما ذُكر.
(٨) أرجأ: أخّر.
(٩) [٩/ سورة التوبة/ ١١٨].

الغزو وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن خلف له واعتذر إليه فقبل منهم[١]. وهكذا رواه مسلم، وابن إسحاق. ورواه الإمام أحمد بزيادات يسيرة. كذا في البداية (٥/ ٢٣). وأخرجه أيضاً أبو داود، والنّسائي بنحوه مفرقاً مختصراً. وروى الترمذي قطعة من أوله، ثم قال: وذكر الحديث. كذا في الترغيب (٤/ ٣٦٦). وأخرجه البيهقي (٩/ ٣٣) بطوله.

التهديد على من أقام في الأهل والمال وترك الجهاد

تحقيق أبي أيوب في مراد آية ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾

أخرج البيهقي (٩/ ٤٥) عن أبي عمران رضي الله عنه قال: كنّا بالقسطنطينية، وعلى أهل مصر عُقْبَةُ بن عامر، وعلى أهل الشام رجلٌ ـ يريد فُضالة بن عبيد ـ رضي الله عنهما، فخرج من المدينة صفٌّ عظيم من الروم، فَصَفَفْنَا لهم، فحمل رجلٌ من المسلمين على الروم حتى دخل فيهم ثم خرج علينا، فصاح الناس إليه فقالوا: سبحان الله! ألقى بيده إلى التهلكة. فقام أبو أيوب الأنصاريُّ رضي الله عنه ـ صاحبُ رسول الله ﷺ ـ فقال: يا أيُّها الناسُ، إنكم لتأوّلون هذه الآية على هذا التأويل، إنما أُنزلت هذه الآية فينا معشرَ الأنصارِ، إنّا لما أعزَّ الله دينَه وكَثُر ناصروه فقلنا ـ فيما بيننا بعضنا لبعض سراً من رسول الله ﷺ ـ: إنَّ أموالنا قد ضَاعَتْ فلو أقَمْنا فيها، فأصلَحْنَا ما ضاعَ منها. فأنزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ ـ يردُّ علينا ما هممنا به ـ فقال: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[٢]، فكانت التهلكة في الإقامة التي أردنا أن نقيم في أموالنا نصلحها. فأمرنا بالغزو، فما زال أبو أيوب رضي الله عنه غازياً في سبيل الله حتى قبضه الله عزّ وجلّ.

وأخرجه أيضاً البيهقي (٩/ ٩٩) من وجه آخر عن أبي عمران رضي الله عنه قال: غَزَوْنَا المدينة ـ يريد القسطنطينية[٣] ـ، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، والروم مُلْصِقُو ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجلٌ على العدوّ. فقال الناس: مَهْ مَهْ![٤]، لا إله إلا الله يُلْقِي بيدِهِ إلى التهلكة. فقال أبو أيوب رضي الله عنه: إنّما أُنزلت هذه الآية فينا معشرَ الأنصار لمّا نصر الله نبيه وأظهر الإسلام قلنا: هَلُمَّ نقيم في أموالنا ونصلحها. فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، فالإلقاء بأيدينا إلى

---

(١) وفي البخاري: منه.

(٢) [٢/ سورة البقرة/ ١٩٥].

(٣) عند أبي داود «غزونا من المدينة نريده».

(٤) مَهْ: اسم فعل مبني على السكون بمعنى اكفف.